عنوان المحاضرة الثانية: بدايات الرواية العربية

الأستاذة: خالص زهرة

بادئ ذي بدأ نجد في هذا المضمار آراء وخلافات بين الأدباء والنقاد حول نشأة الرواية العربية. من هو الكاتب الأول للرواية العربية في معناها الحقيقي؟ فالبعض يرى أن العرب قد كتبوا الأدب الروائي والقصصي منذ البداية أي منذ العصر القديم، وهم يستشهدون ب"ملامح عنترة "و"رأس الغول" و"السيرة الهلالية" و"الف ليلة وليلة" و"قصة حي بن يقظان" وغيرها. وآخرون اعتقدوا أن الرواية الحديثة ليست سوى شكل أدبي جديد استوردناه من الخارج منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر ميلادي.

وعندما نبحث في الرواية على مستوى العالم فإن الإنجليزيين والفرنسيين متفقون على أنها نشأت في العقود الأولى من القرن التاسع عشر. وجاءت محاولات العرب في هذا المجال في أواخر القرن التاسع عشر، فمنذ القرن السادس الهجري كان الأدب العربي يتمثل في شعر ركيك، ويقوم على إظهار المهارات اللغوية والتلاعب بالألفاظ. ثم جاء التعليم الحديث على يد "محمد علي" في مصر فترة حكمه 1805م-1848م، وفي بلاد الشام على يد مدارس الإرساليات. وكانت لبنان في اتصال قوي بالغرب وبروما وبفرنسا منذ وقت طويل، ونتيجة لهذا التعليم الحديث أقبل الناس على قراءة الآداب الأوروبية مباشرة أو من خلال الترجمات، فكان عهد "إسماعيل الخديوي"1863 م-1879م بداية عصر ازدهار الترجمة الأدبية والكتب العلمية والدراسية. إذ توجه في هذا العصر المترجمون المصريون إلى ترجمة الأعمال الأدبية خاصة، وانضم إليهم المهاجرون من الشام ولبنان، فترجم "رفاعة الطهطاوي" رواية "مغامرات

تليماك" ل"الأب فنلون"، وترجم "محمد بك عثمان جلال" رواية "بول وفرجيني" وشهدت هذه الأعمال المترجمة إقبالا شديدا من جمهور القراء، ففي نهاية الربع الأول من القرن العشرين نجد عشرات الروايات قد ترجمت من اللغة الفرنسية والإنجليزية إلى اللغة العربية.

وأما الحديث عن لغة الكتب المترجمة إما لغة مسجوعة ومصنوعة، وإما لغة دارجة. ولكن نرى فيما بعد أن الأسلوب تطور وأصبح الأسلوب اللغوي واضحا وبسيطا منذ السبعينيات للقرن التاسع عشر. فالفضل في تقديم الأشكال الأدبية الحديثة يرجع إلى هؤلاء المترجمين، هذا ما أكده مؤرخ الأدب العربي "أحمد حسن الزيات" في كتابه "تاريخ الأدب العربي" ص:321قائلا: "فلما ارتقى الفن الكتابي في الأسلوب الذي علمته في الفصل السابق، يعني دروس المدارس والجامعات الأزهرية والمصرية والبعثات والتراجم والمطابع والصحافة في النهضة الأدبية وأخذت القصة العربية تتميز بطابعها وتستقل بموضوعها وظهرت طائفة من القصص الفنية القوية كزينب لمحمد حسين هيكل، والأيام لطه حسين، وإبراهيم الكاتب للمازني، وسارة للعقاد، وأهل الكهف لتوفيق الحكيم، وبداية ونهاية لنجيب محفوظ."

لعل أول محاولة في مجال الرواية هي رواية "غابة الحق" تأليف "فرانسيس فتح الله مراش" لبناني الأصل الذي صدر لأول مرة عام 1865م، وبالنسبة لظهور الرواية في مصر بلد النهضة السياسية والتعليمية والأدبية فيرى المؤرخون أن كتاب "حديث عيسى بن هشام" "للمويلحي" هو أول رواية ولكن يتفق جميع النقاد على أن الرواية الفنية بمعناها الاصطلاحي هي "زينب" ل"محمد حسين هيكل".

إن الرواية العربية مرت بمراحل عديدة حتى وصلت إلى النضج والكمال، فأولا ترجمت العديد من القصص والروايات من اللغات الأوروبية إلى اللغة العربية ثم تبنى الأدباء منهجهم وأسلوبهم معتمدين على الروايات الغربية وحاولوا إنتاج الروايات على طرازهم وأسلوبهم. وبذلت هذه الجهود أولا في لبنان وسوريا فالفترة الممتدة ما بين 1860م و1870م هي ما تم فيها ترجمة القصص، والروايات من اللغات الغربية إلى اللغة العربية على نطاق واسع. وكان للترجمة أثر كبير ثم حصل التطور فيها، فالرواية العربية قد تطورت مباشرة في ظل الآداب الأوروبية وهذا الأمر يتعلق بالترجمة، وأما بالنسبة للتأليف والكتابة فإن

كتابة الرواية العربية بدأت من رواية "غابة الحق" الصادرة عام1865م، وكذلك رواية "الهيام في غابة الشام" الصادرة عام 1870م من تأليف "سليم البستاني".

وضمن المحاولات الأولية في باب تأليف الرواية العربية رواية "علم الدين" ل "علي مبارك" والروايات التاريخية ل "جرجي زيدان" والروايات الفلسفية ل "فرح أنطوان" و"حديث عيسى بن هشام" ل "محمد المويلحي" و"ليالي سطيح" ل "حافظ إبراهيم". ويأتي بعد ذلك مرحلة الرواية الفنية وصدرت رواية "زينب" ل "محمد حسين هيكل"، فمنذ ذلك الوقت حتى يومنا هذا تطورت الرواية العربية تطورا باهرا من حيث الفن والموضوع ووصلت إلى مستوى الروايات العالمية.

إن الرواية ليست مجرد شكل أو تقنيات بقدر ما هي تصور ووجهة نظر حول الذات والعالم المحيط من حولهما، فهي إذن تتصل بمرجع اجتماعي تاريخي ما، وقد يكون ذلك المرجع حدا فاصلا أو مرحلة. ويشكل هذا المرجع الإطار الزمني المحدد والإطار البشري والبيئي الذي لا يستوي خلق الرواية دونه، بكل أبعاده الشعورية واللاشعورية، الفردية والسياسية، والفلكلورية فالعالم الروائي يولد من الرحم الاجتماعي.

والشكل الروائي العربي الحديث –اليوم–هو الفن الذي يحدد النقاد عمره بأزيد من مائة عام، ولم تظهر الرواية العربية بمفهومها الحديث إلا في أوائل القرن العشرين في مصر حيث اتخذت مع شيء من التعميم اتجاهات ثلاثة:

– **اتجاه رومانتيكي عاطفي**: تمثله أول رواية مصرية، وهي "زينب" لمحمد حسين هيكل سنة 1913م، ورواية "إبراهيم الكاتب" لإبراهيم عبد القادر المازني سنة 1931م.

–**اتجاه تاريخي**: ظهر في الروايات التاريخية لعلي الجارم، وعلي باكثير، ومحمد فريد أبو حديد، التي تأثرت كلها بالروايات التاريخية لجرجي زيدان.

-اتجاه واقعي: وهو الغالب في الروايات العربية إلى الآن ويتمثل في "يوميات نائب في الأرياف" لتوفيق الحكيم سنة 1937م، و"سارة" لعباس محمود العقاد سنة1938م، و"شجرة البؤس" لطه حسين سنة1944م، و"سلوى في مهب الريح" لمحمود تيمور سنة 1944م، وفي ثلاثية نجيب محفوظ الشهيرة: "بين القصرين" سنة 1956م، و"قصر الشوق" سنة 1957م، و"السكرية" سنة 1957م.

المراجع:

-حمدي السكوت، الرواية العربية، المجلد الأول، قسم النشر بالجامعة الأمريكية، القاهرة،2000م.

-عمر الدسوقي، في الأدب الحديث، دار الفكر، 2000م.

-أحمد حسين الزيات، تاريخ الأدب العربي، ط2، دار النهضة للطباعة والنشر.

-أسماء أحمد معيكل، الأصالة والتغريب في الرواية العربية، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2009م.

-أمينة يوسف، تقنيات السرد بين النظرية والتطبيق، دار الحوار، 1985م.

-مجدي وهبة كامل، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، ط2، مكتبة لبنان، بيروت، 1984م.